من وحي الربيع وخواطر النفس

بقلم: محمد معصوم رسول
سورية

ما أشد غربة المؤمن في حياته هذه الأيام، وهو يجدها تموج بشتى صنوف الظلم والطغيان، وألوان من الضلالات، لا تستقر على حال، ولا يقر لها قرار.

واليوم أجدني قد مللت عزلتي، فتركت كتبي التي هي من أعز ممتلكاتي على قلتها. ولكم عكفت عليها طويلاً منزوياً عن صخب الحياة، وانحدرت من حجرتي الراقدة في كتف الوادي في يوم ربيعي جميل صوب النهر، أعلل النفس وأسليها بما أبدعته يد القدرة العلية على صفحة الطبيعة!

وسرعان ما لفتت نظري أشجار الحور الباسقة، بصفوفها المنتظمة وقاماتها المشوقة تميس دلاً على ضفاف النهر الخالد، وهو ينساب بهدوء لا يعكر صفوه غير نسيمات من هواء عليل، تهب عليه رخاء فتلثم صفحته بحب وحنان، فيتماوج بهدوء على مدى النظر.

الشمس ما أجملها ! وهي تميل عن كبد السماء نحو الغروب رويداً رويداً، تنشر الدفء والضياء.. فاتنة في برقعها وراء قطع الغيوم المتناثرة أمامها على صفحة السماء، تسفر عن وجهها الوضاح تارة، وتحجبه أخرى.. ترسم بضيائها ظلالاً لأعطاف الحور السامقة، على صفحة الماء غواني اشتبكن بالأيدي والتصقن بالمناكب في مهرجان عرس كبير.. والمروج تمتد خضراء على مرمى البصر في بساط الجنة دبجته يد القدرة العلية بأبهى وأحلى ما تضمنته آيات الحسن والجمال.

هذا الألق والجمال، وهذه الفتنة تشدك من كل طرف! تخلبك هذه الورود والرياحين.. هذا الأقحوان.. وهناك شقائق النعمان.. أية ريشة رسمتها في هذه الروعة ومنتهى البهاء!.

والنرجس والسوسن والبابونج متناثرة في كل مكان.. وغيرها كثير مما لا يحصيها عد أو يحيط بها وصف.. هذا يزهو دلاً وجمالاً، وذاك ينشر عطراً وعبيراً .. إنها مباراة كونية رائعة في معرض ضم أزهى وأحلى وأمتع صنوف الفن والعطر والجمال!

وهذه البلابل والطيور، والعصافير والشحارير، تضفي على هذا الجمال جمالاً، وعلى الطبيعة رُواء وبهاء، بألوانها الجميلة، وأصواتها الشجية.

إن الطبيعة أرضاً وسماء في مهرجان ربيعي رائع، يعزف لحن الفن والحياة إلى الأبد.. ما أجملها! لولا عبث الإنسان!.

اقتربت من مجموعة أقحوان، وبالقرب منها شقائق النعمان، أتأملها عن كثب، وأمتع البصر بهذا الجمال الأخاذ كأنها لوحة من ريشة فنان مبدع!

يا لله ! ما أبدعه من حسن وجمال!

هل عباقرة الدنيا وجهابذة العلم والفن والجمال قادرون على أن يأتوا بمثل هذا أو قريباً منه؟ ولو وريقة واحدة منها تفوح مثلها عطراً وتميس جمالاً، وتموج حياة!. لا والله!

وسرعان ما استغرقت في تأمل عميق.. وتساؤل شديد!

- هل هذا - حقاً - من فعل الطبيعة الخرساء - كما يدّعون؟

- هل هذا - حقاً - من فعل هذه الأرض الجرز..؟!.

- هل هذا - حقاً - من فعل هذا الطين اللازب؟.

- وهل يقبل عاقل، مثل هذا الهراء؟

وأي هراء يموج في عقول هؤلاء القوم؟ يدفعهم إلى الإلحاد ثم الضلال..!

مَنْ مِنَ الخلقِ يجرؤ على أن يقدم تفسيراً آخر للحياة غير أنها من صنع حكيم خبير؟!..

اللهم إلا الحمقى من البشر، الذين يحاولون إقناع أنفسهم السقيمة - دون جدوى - بترهات لا تستند إلى علم أو يقين.. فيتمرغون في عالم من الوهم والخيال بعيداً عن الحقيقة، لا يقر لهم قرار..

وفي غمرة هذه التأملات.. وأنا أستشعر عظمة الخالق عز وجل، إذا بصوت عذب يتهادى مع النسيم، فيملأ جنبات الكون جلالاً وخشوعاً يقطع شريط هذه التأملات.. فألتفت أصغي..

إنه الهتاف الخالد، ينتشر من تلك القبة السامقة وهي تعانق الفضاء شامخة رغم المحن وعوادي الزمن، فيردد الكون صداه إلى الأبد..

إنه نداء الحق والإيمان.. نداء الفوز والفلاح.. الله أكبر، الله أكبر

وسرعان ما تراءى لي من خلال هذا النداء العذب، هذه المروج الخضراء والبساتين الفيحاء وقد أضحت حطاماً يابساً، وهشيماً تذروه الرياح.. رياح الخريف، وقد نضب ماؤها، وانقطع عبيرها، وأضحت في الأموات ولا حياة!.

ثم بدت لي الحياة على حقيقتها، وقد تخلت عن زخرفها البراق، آلت بساتينها ومروجها الخضراء إلى ما آلت إليه، هشيماً تذروه الرياح.. وكأنها لم تكن يوماً ما!.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ الزمر. ■

خواطر جنين

أسماء صلاح الدين
مصر

لم يعد بيني وبين تلك المرأة إلاّ هذه اللحظات الفارقة في العلاقة بيننا، هي آخر ما عشته من عمر بين أحشائها وضلوعها ، عرفت خلالها نموذجا من العطاء لم تعرف الحياة مثله ؛ فكانت تبعث إليّ بإشارات حب دافق عبر دقات قلبها الدافئ.

إيهٍ .. ما تلك العاطفة التي لم تحتمل مشاعري استقبالها ، فكيف بمن حملتها إليّ؟

ما تلك العاطفة التي لم يكن لصاحبتها عهد بي إلاّ منذ شهور تسعة حين خفق شيء في أحشائها فدق قلبها من حينها اشتياقاً إليّ وحنيناً؟! وهاهي قد حان وقتها الآن .. ويالها من لحظات غريبة جمعت بين عذابات الآلام وعذوبة قرب اللقاء...

هي حكمة بالغة ، ولا شك في هذا الموقف تستوقفني ...

حقاً هي لحظات فارقة في حياتي ، فإني قد عرفت الدنيا قبلها في مرآة قلب تلك المرأة ونبضها ، وبعدها أعرفها من مرآة سمعي وبصري وفؤادي، كم أنا مشتاق إليك سيدتي ، ومشتاق إلى ذلك الشريك الذي تقاسم معك مجيئي إلى هذه الحياة.

وكم تشغلني وراء ذلك تلك الحياة التي أنا قادم إليها ، من سأكون فيها ؟ وكيف أكون فيها؟ وكيف تكون شمسي وقمري.... ؟؟؟

الله ... الله ... لقد انطلقت الآن من عالم غيبي إلى عالم شهادتي ، ويالها من بدايات مشرفة ، فتلك أمي قد ضمتني إلى صدرها ضمة حنون، وذاك أبي طيب القسمات ، كان أول عهدي به أن وضع ميثاق الأذان عن يمين سمعي ، وعهد إقامة الصلاة عن يساره.